

الفصل الأول

الخلافة الأموية وغزو أوروبا

الخلافة الأموية وغزو أوروبا

كانت الخلافة الأموية منذ عهد الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان تتطلع إلى غزو القارة الأوروبية لنشر العقيدة الإسلامية ودعوة أهلها إلى القرآن الكريم لاسيما أن فكرة الغزو الإسلامي كانت فكرة مخططة الإستراتيجية الإسلامية لرفع الراية الإسلامية في القارة الأوروبية وذلك منذ عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ولما كانت جدران مدينة القسطنطينية قد حالت دون اختراق المسلمين للقارة الأوروبية من الناحية الشرقية . فإنه لا يوجد أدنى شك في أن التوجه إلى الشمال تطلعا إلى أوروبا قد كانت فكرته موضوعا مطروحا للدراسة والمناقشة في بلاط الخلفاء الأمويين الذين اخذوا على عاتقهم التوسع في بلاد المغرب واتمام فتحه لاسيما أن الوليد بن عبدالمملك بن مروان عندما أرسل قائده موسى بن نصير لاتمام فتح المغرب كانت الرؤية الإسلامية في بلاط الخليفة الأموي تضع أسبانيا بين الاقطار التي تضمها الاستراتيجية الإسلامية للتوسع والتي لا بد أنها ظهرت إلى حيز التنفيذ عندما وصلت الخلافة الأموية في دمشق أبناء سقوط مدينة طنجة في أيدي القوات الإسلامية وهي الميناء القريب والمشرق على أسبانيا لاسيما وأن المسلمين قد عرفوا أنه لا توجد هناك بلاد وراء بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) فكان التوجه الشمالي نحو أسبانيا هو التوجه الطبيعي لاسيما ان العامل الجغرافي والبعد الامتدادى وقرب أسبانيا من المغرب قد لعبت الدور الاكبر في فكر رجال الاستراتيجية العسكرية الإسلامية للقفز على أسبانيا لاسيما أن هناك جيلا من رجال الدعوة الإسلامية والمقاتلين الأشداء من البربر حديثي العهد بالإسلام الشديدي الايمان برسالة القرآن والذين خبروا كل ألوان القتال بعد أن أمنوا خط الدفاع الغربى للفتوحات الإسلامية بالوصول إلى مياه المحيط فكانت أسبانيا هي الهدف القادم لأنها ضرورة حتمية فرضتها سياسة نشر الدعوة الإسلامية والتوسع في ادخال أهل أوروبا في هذه العقيدة هي الطابع العام للدولة الإسلامية أثناء خلافة الوليد بن عبدالمملك بن مروان (٨٦ - ٩٦ هـ).

لاسيما أن عقبة بن نافع الفهري قد امتطى صهوة جواده واتجه صوب الغرب إلى المحيط الأطلسي فلم ير الا بحرا هائلا وحسب أنه ليس هناك خلف هذا البحر عالم آخر واناس يعيشون فإذا موسى بن نصير يتجه شمالا ورأى أوروبا وعزم على أن يعبر هذا المضيق وينشر الإسلام خلفه خاصة وأن سكان أسبانيا كانوا يحكمون مناطق في المغرب استولى عليها المسلمون وكانوا لذلك فى صراع مع المسلمين لاسيما أن التوسع جنوبا عبر الصحراء الكبرى والإنتشار فى مجاهل هذه الصحراء لم يكن وارد فى فكرة السياسة الإسلامية الأموية لذا فإن الاتجاه لفتح أوروبا عن طريق الأندلس هو الاتجاه الطبيعى والمقبول بعد احراز الانتصار الواسع والتمكن لقوى الإسلام فى المغرب والسيطرة على ضفاف مضيق جبل طارق الجنوبية وهكذا كان الباعث السياسى هو المحرك الأول لعملية غزو أسبانيا. وكان غزو أسبانيا عملية حربية تفوق كل العمليات الحربية التى أنجزتها الدولة من قبل ولذا كانت دراسة الأمر عن قرب والاطلاع على كل تفاصيله رغم موافقة الخلافة على الخطة التى شاركتها نفس الموقف بل حفزته للتقدم وكان أن تم العبور وحققت الغزوة انتصاراتها العسكرية وكان موسى بن نصير يتابع ويراقب باهتمام شديد الموقف على الساحل الأفريقى ويتبع أخبار الحملة.

ويبدو أن أخبار الانتصارات بقيادة طارق بن زياد فى كل أنحاء أسبانيا قد كان لها وقع طيب فى نفس موسى بن نصير أمير القيروان مما حفزته لكى يتحرك بنفسه على رأس قوات اسلامية فىكون قائدا للعمليات العسكرية وليقف هو شخصيا على طبيعة الأوضاع القتالية ومراقبة سير العمليات عن قرب وهكذا كان القرار بأن يكون موسى بن نصير الذى هو المسئول الأول والقائد العام للجيش فى المغرب وأسبانيا لكى يتخذ قراراته الحاسمة فى الوقت الملائم لاسيما أنه كان يقدر الموقف ويدرسه بعناية كافية ويضع كل الأمور فى موضعها الصحيح ويضع لكل شىء حسابه لاسيما أنه بعث للخليفة الأموى الوليد بن عبدالمك يستأذنه فى العبور واصدار الأمر له بالإنطلاق إلى أسبانيا. ولما كانت القيادة الإسلامية فى دمشق قد أعطت الضوء الأخضر بالتحرك سريعا لاجتياز المضيق بعد أن كانت القوات لدى

طارق بن زياد على أهبة الاستعداد فإن تحرك موسى بن نصير لقيادة القوات المنتصرة أمرا طبيعيا باعتباره المسئول الأول أمام الخليفة عن هذه التحركات العسكرية وكان موسى بن نصير يرى في طلب طارق بن زياد العون والمساندة السريعة دافعا له لدلالة قوية يحتم عليه الزحف بقوات كبيرة لكى يكمل مع طارق التمام فتح أسبانيا لأنه من المستحيل أن يتم فتح أسبانيا بالقوات القليلة المتبقية مع طارق بن زياد التي لم تصل إلى اثني عشر ألف مقاتل .

وهكذا فى أقل من عام واحد كانت السيادة الإسلامية قد توطدت وثبتت أقدامها وتعمقت جذورها فى كل الأراضى الأسبانية فقد استقر المسلمون نهائيا ولم يعد هناك أدنى شك فى توطيد النفوذ الإسلامى فى أقل من عامين (٥ رجب - ٩٢ هـ / وأواخر عام ٩٤ هـ).

وهكذا كان تحقيق الهدف الذى جاء الجيش الإسلامى من أجله لأقوى من أى أسباب أخرى لأن دافع المعانى الإسلامية السامية قد جعل من المسلمين أمة لا تتخلف عن تقديم كل شىء من أجل إعلاء كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله لاسيما أن الجند الإسلامى الفاتح قد وطن نفسه منذ العبور على الاستقرار لأنه يتمتع بالروح الإسلامية العالية التى توفرت لدى الفاتحين عاملين على رفع راية الإسلام لكى تسود شريعة الله ويكون الدين كله لله عاملين على ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده (لا غالب الا الله)

وكان موسى بن نصير قد أدرك خطورة الانتشار الواسع للقوات الإسلامية فى أسبانيا دون تغطية عسكرية كافية فأبحر فى رمضان ٩٣ هـ/ يونيو ٧١٢ م بقوات بلغت ثمانية عشر ألفا .

ومن هنا فإن فتح الأندلس لم يكن عملا مرتجلا بل كان يسير وقف خطة علمية موضوعية مرسومة ومدروسة من قبل قيادة القيادة الإسلامية العليا فى دمشق وتنفيذها يتم فى القيروان .

وبعد أن تم العمل العسكري التام بدأ موسى بن نصير يمارس عمله كأول ولاة الأندلس فى طليطلة وهو أول حاكم مسلم يحكم قطرا أوروبا وكان تأكيد ذلك عندما أمر موسى بن نصير بضرب عملة إسلامية فى دار السكة بطليطلة وأرسلت الرسل (مغيث الرومى، على بن رباح اللخمي) إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق يخبراه بما تم مجازاه من نصر عظيم ولكى تذاع أخبار هذه الانتصارات فى أرجاء العالم الإسلامى وإرسال بعض الهدايا البسيطة للخليفة وليس كنور، وجواهر كما يذكر المؤرخون الغربيون لأن الخلافة الإسلامية لم يعينها من الأمر الا نشر الإسلام وتوسيع دائرة المد الإسلامى والعمل على اخراج الشعوب الأوروبية مثل غيرها من الشعوب التى وصل إليها نور القرآن لكى تكون فى نطاق العمل الإسلامى الموحد فى ظل الخلافة الإسلامية.

وهكذا كان قرار موسى من وجهة النظر العسكرية هو السيطرة على هذه المدن ثم فتحها ولقد شعر موسى بأن الوقت قد حان لاتخاذ قرارات تنظيمية باعلان الحكم الإسلامى والشريعة الإسلامية فى المدن المفتوحة وعقد موسى مجلسا حربيا لبحث الموقف العسكري العام ومناقشة المرحلة التالية فى الفتح وما جرى فيها وأنفق موسى بن نصير وطارق بن زياد على تنسيق الفتوحات الباقية ببلاد الأندلس.

ولقد كانت الخلافة الأموية تسعى لخدمة الإسلام لأن الهدف كان قرآنيا بحتا ومن هنا كانت الخلافة على استعداد لإرسال الجنود والبذل بالأرواح والأموال والتضحية التى كان خلفاء بنى أمية حريصون عليها ويجدون فى الفتح والغزو سيرا على خطى الخلفاء الراشدين وتلك هى سمات الدولة الإسلامية وسمات الخلفاء الأمويين الذين يعملون لأجل نصرة الإسلام وإرسال الفقهاء والعلماء وبث الروح الإسلامية فى البلاد المفتوحة وبناء المساجد وإنشاء الإدارة الإسلامية التى تسيير وفق نهج القرآن الكريم وشريعة الإسلام والتى تعمل على المساواة بين المسلمين جميعا بغض النظر إلى الأجناس والألوان واللغات فالكل سواسية يسعون جميعا لهدف واحد هو العمل من أجل نشر الإسلام وتعريف غيرهم بالقرآن الكريم ومنهجه.

وتذكر المصادر أن موسى بن نصير قام بدور فعال في الفتوحات شمالا حتى بلغ جبال البرت أى الأبواب وهى التى تسمى البرانس ووقف على أبواب فرنسا.

وقد استخدم العرب جبال البرنيه من الجنوب للشمال للعبور أى غاليا «فرنسا» منذ أن وطئت أقدامهم هذه الجهات وكانت هذه الجبال الشاهقة الوعرة حاجزا هاما على مر القرون يفصل شبه الجزيرة الايبيرية عن غاله ويصف الجغرافيون المسلمون القدامى جبال البرنيه (أو البرت أو البرتات) وصفا لا يختلف كثيرا عما تقدمه كتب الجغرافية الحديثة فى ذلك إذ أن يصف الشريف الادريسي فى كتابه (نزهة المشتاق فى أختراق الأفاق) هذه الجبال فيقول والأبواب الرومانية طولها من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام وهو جبل عال جدا صعب الصعود فيه أربعة أبواب لها مضائق يدخلها الفارس بعد الفارس وهذه الأبواب عراضى لها مسافات وهى منحرفة الطرف وأحد هذه الأبواب الباب الذى فيه ناحية برشلونة ويسمى برت جامة والباب الثانى الذى يليه يسمى برت أشيرة، والباب الثالث منها يسمى برت شني روا Roncesvalles وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا والرابع منها يسمى برت بيونه ويتصل بكل برت (باب) منها مدن فى الجهتين فما يلى برت شيزروا مدينة بنبلونه وهو الذى أطلق عليه عمر الرونسفال وهو أقرب الممرات إلى مدينة نبلونه وهذا الممر الغربى هو الممر الذى عبرة فيما بعد عبدالرحمن بن عبدالله الغافقى عندما اتجه عمليا لغزو فرنسا وكانت موقعة بلاط الشهداء وبواتيه هى محور دراستنا

وهكذا فإن الذى ينظر إلى طبيعة هذه الجبال الشاهقة والممرات الطبيعية التى كانت تخترقها والتى لاتسمح الا بمرور فارس واحد يدرك مدى الصعوبة التى كان يلاقيها المسلمون فى عبورهم هذه الأماكن الخطرة الوعرة التى كانت تشكل حاجزا طبيعيا صعبا حال دون التوسع فى ارسال الحملات إلى فرنسا ولولا وعروة هذه الجبال لتغير الموقف التاريخى فى هذه المناطق ومن ذلك فإن الفتح الإسلامى للأندلس لم تكن به جبال شاهقة مثل جبال البرت وهذا سهل عملية الفتح بينما أعاقت جبال البرت فى الإنطلاق الإسلامى فيما بعد فى أرجاء أوروبا الواسعة.

إضافة إلى أن موسى بن نصير قد اتجه غربا ودخل أثنوريس وبذلك فإن موسى يكون قد فتح مناطق في الأراضي الكبيرة (فرنسا) حيث جبال البرت وقاد حركة المد الإسلامي بنفسه وانطلق بالسرايا التي معه وفتح بلاد في جنوب فرنسا حتى بلاد قرقشونه واريونه، وابنسيون وليون على نهر الرون وربما يكون موسى قد وجه السرايا لاختيار هذه المناطق وربما تكون سرايا استطلاعية كتلك التي قام بها طريف بن مالك لاستطلاع الأندلس قبل العبور لفتحها ويذكر ابن خلدون أن موسى بن نصير قاد السرايا بنفسه وراء جبال البرت في فرنسا وقد تكون هذه السرايا التي ربما قادها بنفسه، أو أرسل أحد من أبنائه عبد الأعلى أو عبدالعزيز أو مروان لاستكشافها مادام أنه قريبا منها وإن أحد التابعين واسمه (حيان بن أبي جبله) قد غزا في بلاد الفرنجة مع موسى بن نصير إلى بلدة يقال لها قرقشونه.

ومن هنا فإن لا عجب أن فكر موسى بن نصير بعد أن فرغ من فتح أسبانيا أن يعبر جبال البرت إلى بلاد غاله (فرنسا حاليا) ثم يمضي إلى أن يفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بطريق أوروبا بعد أن استعصى فتحها على المسلمين من الجانب الشرقي ثم يستمر موسى في فتوحه حتى يصل إلى بلاد الشام مركز الخلافة الأموية.

وقد رأى المؤرخ المقرئ في أن موسى كان يأمل أن يخترق مابقى عليه من بلاد الفرنجة وأن يفتح الأراضي الكثيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤملا أن يتخذ مخترة بتلك البلاد طريق سلكة، أهل الأندلس في سيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لايركبون البحر وهنا كانت فكرة ابن نصير صائبة لأنه كان سيسلك طريقا برياً معروفا ويخترق بلاد عدة وأن أهل أسبانيا والأوروبيين قد سلكوا هذا الطريق فهو كان سيزحف في طريق واضح المعالم ومعروف من قبل أهل الأندلس والأوروبيين.

ولكن الدكتور حسين مؤنس يستبعد أن يكون موسى بن نصير قد فكر في أمر خيالي عسير التحقيق كهذا أما غيره من المؤرخين المحدثين أمثال عبدالحميد العبادي فيرى أن موسى بن نصير قد فكر بعد أن أتم فتح أسبانيا في أن يعبر جبال البرانس

إلى أرض غالبا «فرنسا» ومنها يسير إلى فتح روما ثم القسطنطينية ومن أجل هذا المشروع الضخم استدعى الخليفة الوليد بن عبدالمكك قائده موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد فالخليفة كراع مسئول عن رعيته كان يخشى أن يلعب النصر العظيم برأس موسى فيغرر بالمسلمين في أرض واسعة وطريق لم يقطعه فاتح من قبل فلم يخترق أوروبا جيش موحد من أسبانيا إلى القسطنطينية ويرى الدكتور فيليب حتى في أنه على الرغم من أن هذه الفكرة الهائلة والخلافة إلا أن حلم العرب بأن يقتحموا طريقهم عبر أوروبا يجوز أن يكون قد مر بأذهان بعض القادة العرب الذين لم يكن معلوماتهم عن جغرافيا أوروبا كثيرة.

ومن هنا كان اختيار بلاد (غاله) الأراضى الكبيرة قد تم بهذا الشكل وهذا يعطى الدليل على أن موسى بن نصير وطارق بن زياد استمرا في عمليات الفتح شمال أسبانيا حتى ولو لم يذهب موسى بنفسه وراء البرت فانه استمر في ممارسة أعمال الفتح في مناطق الثغر الأعلى وما بعده في اتجاه الشرق والشمال وأن موسى فتح بلاد (الباسك) البشكنش وأوغل في بلادهم وأنه فتح بنفسه وربما التقى مع طارق وتعاونوا معا في الفتح وأن اللقاء كان حسب خطة مدروسة وترتيب سابق.

وهكذا كان التحرك الإسلامى فيما وراء البرت ماهي إلا خطة مدروسة للتوسع في الفتوحات وضم فرنسا إلى الأراضى التي تم فتحها في أسبانيا توطئه للانطلاق منها إلى جهات أوروبية أخرى وصولا إلى دمشق العاصمة الأموية عن طريق القسطنطينية بعد أن تدين له جنوب أوروبا وأن يستمر في رحفه حتى يفتح القسطنطينية من الغرب بعد أن عجز حصار معاوية بن أبى سفيان عن فتحها من الشرق فكانت خطة التوسع في سهول فرنسا تحقيقا لهذا الهدف البعيد الذى يسمى إلى احتواء أوروبا تحت لواء الإسلام الذى كان هدف القيادة السياسية فى دمشق. فى ذلك الوقت والتي عملت ماوسعها العمل لتحقيق هذا الهدف.